

مدونات سومرية

بأقر جاسم محمد
كلية الآداب / جامعة بابل

ملاحظة: تدور هذه المدونات حول أحداث و شخصيات متخيلة في مدينة الوركاء من بلاد سومر.

المدونة (1)

قال نخلة الحكيم لابنه تالا: كيف ترى الحقل؟
قال تالا: لا أرى حقلاً.
قال نخلة الحكيم: فماذا ترى إذن؟
قال تالا: أرى أرضاً سمراء و ماءً و فيراً.
قال نخلة الحكيم: و صوامعنا فيها بقية من بذور و سواعدنا قوية؛ فكيف لا ترى الحقل إذن؟

المدونة (2)

قال نخلة الحكيم لابنه تالا: يا ولدي، حين ترى الكاهن يتخذ لنفسه رمزاً هو خنزير له أنياب نمر و برائن ذئب و ذيل أفعى، فاهجر معبده، و اهرب منه لأنه بدلاً من أن يرعى روحك سيفسدها؛ و بدلاً من أن يوصيك بأخيك سيجعلك تمتص دمه.

المدونة (3)

قال تالا لأبيه: بالأمس حذرتني من الكاهن، فكيف تحذرنني من الأمير؟
قال نخلة الحكيم: حين تراه يهتم بكمية السلاح في مدينته أكثر من اهتمامه بكمية الخبز؛ و حين تراه يكثر من القصور لنفسه و أتباعه، و من القبور لرعيته فأعلم أنه فاسد لا صلاح له.

المدونة (4)

سأل تالا أباه نخلة الحكيم: متى يصل الإنسان إلى الكمال؟
قال نخلة الحكيم: لن يصل أبداً.

قال تالا: فما قيمة ما يسعى إليه؟
قال نخلة الحكيم: شرفه في أن لا يتوقف في السعي إليه.

المدونة (٥)

زار نخلة الحكيم و أبنه قبر زوجته، أم تالا، الذي يقع إلى جانب النهر. وقد وقفا إلى جانب القبر الذي أعشبت جوانبه صامتين. و حين نظر الابن إلى وجه أبيه رأى فيه حزناً ثم ابتسامة ثم سحابة ثم مطراً، فسأل أباه: كيف هو تذكرك لأمي؟
قال نخلة الحكيم: كيف أنسى امرأة أنستني حزن لأنني يتيم في هذا الكون و سكبت النور و السرور في أعماق روعي!؟

المدونة (6)

قال تالا لأبيه: ما الذي يحزنك هذه الأيام يا أبي؟
قال نخلة الحكيم: ما يحزنني هو أنني أرى عدد الرقم الطينية التي لم أقرأها بعد ، و أرى، في الوقت نفسه، نقص ما بقي لي من أيام في هذه الدنيا، لذلك أحزن.

المدونة (٧)

قال تالا لأبيه: ما آخر ما قرأت و تريدني أن أحفظه؟
قال نخلة الحكيم: قرأت في بردية من وادي النيل الآتي:
"من المحزن يا ولدي أن يصمت الذين يفهمون ، و يتكلم الذين لا يفهمون."

المدونة (٨)

قال تالا لأبيه نخلة الحكيم: ألا ترى يا والدي ما حل بالمدينة من خراب؟
قال نخلة الحكيم: بلى. و قد تنبأت به من قبل.
قال تالا: لقد فسدت الأسواق وشاع الفقر.
قال نخلة الحكيم: أصلح حال المعلم.
قال تالا: و كثرت المظالم و ضاعت الحقوق.
قال نخلة الحكيم: أصلح حال المعلم.
قال تالا: و أهمل قادة الجند الاستعداد للدفاع عن المدينة و اهتموا بالسلب و النهب.
قال نخلة الحكيم: أصلح حال المعلم.
قال تالا: لقد شاع الفساد ، و صار الكذب أمراً لا يخجل منه قائله ، و خان الأزواج بعضه بعضاً.
قال نخلة الحكيم: أصلح حال المعلم.
قال تالا: وقد انغمس الأمراء في ملذاتهم و أهملوا حال أهل المدينة.
قال نخلة الحكيم: أصلح حال المعلم.

قال تالا: فكيف أفعل ذلك؟
قال نخلة الحكيم: أصلح حال نفسك أولاً.

المدونة (٩)

انتقل صديق لنخلة الحكيم من مدينة الوركاء إلى مدينة أور ؛ و قد زاره ليودعه و يطلب نصيحته.
قال الصديق : لقد اشتريت بيتا في أطراف أور ، و هناك بيوت قريبة من بيتي. و قد علمت أن الأمن غير مستتب في تلك الأنحاء. فماذا أفعل لكي أضمن لنفسي و لأهلي الأمان؟
قال نخلة الحكيم : لا تظلم أحداً ، و أحسن الظن بجيرانك و أحسن إليهم.
قال الصديق : و لكنني سمعت أن المرء قد يقتل دون ذنب؛ فكيف أحمي نفسي و أهل بيتي؟
قال نخلة الحكيم : اشتر لنفسك سلاحاً و لكن لا تبادل إلى استعماله دونما ضرورة.
قال الصديق : أظن أن من الحكمة أن أشتري عدداً من الأسلحة لا سلاح واحد.
قال نخلة الحكيم : من يشتري سلاحاً واحداً فإنه يريد الدفاع عن نفسه؛ أما من يشتري عشرة فإن له غاية أخرى.

المدونة (١٠)

قال تالا لأبيه: ماذا أعمل لكي أعيش؟
قال نخلة الحكيم : و ما هي المهن التي يمكنك العمل فيها ؟
قال تالا: الجنديّة ، أو الخدمة في المعبد، أو التجارة ، أو الفلاحة ، أو النجارة ، أو الحدادة، أو البناء.
قال نخلة الحكيم : الجنديّة قد تكون مهنة قتال دفاعاً عن المدينة، أو مهنة قتل و فتك دفاعاً عن أمير ظالم. و الخدمة في المعبد و التجارة تجعلناك تعيش على كدح الآخرين دون أن تنتج شيئاً. أما المهن الأخرى فإنها تجعلك تنتج الخير لك و لأهلك و للآخرين . فأختر منها ما تشاء.

المدونة (١١)

قال تالا لأبيه :يا أبي ، أنوي السفر إلى دلمون. و سأبقى هناك مدة من الزمن. فهل تنصحنني أن أتخذ لنفسي هناك أصحاباً من أهل مدينتنا الوركاء، أم من أهل دلمون نفسها، أم من أهل أور؟
قال نخلة الحكيم : الناس صنفان : فمنهم من هو طيب تأمن له و تأنس إليه، و منهم من هو شرير لا يؤمن جانبه.
قال تالا : و لكن لم تقل لي من أي المدن أتخذ أصحاباً!
قال نخلة الحكيم : بل قلت لك.

المدونة (١٢)

ذهب نخلة الحكيم و ابنه تالا إلى سوق مدينة الوركاء لشراء محراث جديد. و قد وقفا عند دكان النجار و دكان صانع الفخار و دكان صانع الحصران، و حين اقتربا من دكان النحاس، أسرع نخلة بالمشي حتى كأنه لم يلحظ أي شيء فيه . و قبل أن يصل إلى دكان صانع المحاريث قال تالا لأبيه: لماذا أسرعت يا أبي ؟ فأنا لم أتمكن من مشاهدة ما يعرضه النحاس من العبيد و الجوارى.

قال نخلة الحكيم : لن أقول لك لو كنت أنت عبداً فهل ترضى بأن تقف ليتفرج عليك الناس و يساوموا النحاس لشرائك؛ و لكنني أقول إن من بين كل ما رأيته من أمور يرفضها عقلي و قلبي فأن العبودية هي أكثرها شراً و ندالة.

المدونة (١٣)

أخذ نخلة الحكيم يقضي وقتاً طويلاً في مراقبة السماء و يمعن النظر فيها صباح مساء. فسأل تالا أباه: لماذا يا أبي تقضي كل هذا الوقت ناظراً إلى السماء؟ هل تريد أن تصبح كاهناً؟ قال نخلة الحكيم: كلا يا ولدي، إنما أفعل ذلك لأمر آخر. قال تالا : فما هو؟ قال نخلة الحكيم : أريد أن أعرف كيف تؤثر السماء فينا. قال تالا: هكذا يتكلم الكهان يا أبي. إنهم يقولون أنهم يملكون معرفة ما تريده السماء، و أنهم يمثلون الصلة بالسماء، و أرى أن كلامك يشبه كلامهم قال نخلة الحكيم : ليس الأمر كما بدا لك يا ولدي. فالكهان يزعمون معرفة إرادة السماء و يحتكرون تلك المعرفة لأنفسهم لأنهم يريدون إخافة الناس من السماء و منعهم من التفكير . أما أنا فأريد معرفة السماء لأدرك أسباب تغير الفصول و كيف يؤثر ذلك في الزرع و في تكثير الماشية. و أريد أن أنشر ذلك بين الناس حتى يزداد حصادهم و عديد ماشيتهم. فهل يتساوى من يخيف الناس بمعرفة السماء و يزعم أنه الوسيط بينهم و بين السماء مع من يدعوهم لمعرفة السماء مباشرة حتى يفهموا متى يحرثون و متى يبذرون و متى يحصدون؟

المدونة (١٤)

تعرضت بلاد سومر لرياح عاتية و مطر غزير لم ينقطع لثلاثة أسابيع كما فاض الفرات حتى دمرت المياه الزرع و قتلت كثيراً من الأنعام ، و لم يبق ظاهراً فوق الماء سوى باسقات النخيل و بعض الأماكن المرتفعة فتجمع بعض الناجين فوق تل مرتفع و كان بينهم الأمير و الكاهن و نخلة الحكيم. قال الأمير : صوامع الغلال مبنية على مرتفع من الأرض و فيها ما يكفي الأمير و عائلته و جنده. قال الكاهن: في المعبد من المؤونة ما يكفي لمن يخدمون الآلهة. قال نخلة الحكيم مخاطباً الناس: أيها الناس، فلنجمع ما بقي من بذور و نقسمه قسمين؛ قسم نأكله و قسم نزرعه. فالأرض قد جفت و قد زادها الفيضان خصوبة و هي في شوق لاحتضان البذور.

المدونة (١٥)

قال تالا لأبيه : لقد وعيت و حفظت ما علمتني يا أبي. و سوف أعمل به. قال نخلة الحكيم : و لكن ذلك لا يكفي. قال تالا : فما الذي يكفي يا أبي؟ قال نخلة الحكيم : يا ولدي ، لقد علمني والدي أشياء كثيرة حفظتها عنه و لكنني لم أكتف بها؛ فقد وجدت الحياة أوسع مما علمني والدي . فتعلم أنت من الحياة و أضف إلى ما تعلمته مني.

المدونة (١٦)

قال تالا لأبيه نخلة الحكيم: أراك يا أبي أكثر ميلاً إلى جارنا تانو من جارنا كوهال ؛ فلماذا أنت كذلك يا أبي؟
قال نخلة الحكيم: لأن تانو يخطي قليلاً، و حين يخطي فإنه يعتذر ممن أخطأ بحقه ؛ أما كوهال فإنه يخطي كثيراً بحق الآخرين و لم أسمع مرة يعتذر لأحد.

المدونة (١٧)

قال نخلة الحكيم لولده تالا: إذا أردت أن تحيا و نفسك مرتاحة و مطمئنة فأحبب زوجك و أسعدها؛ و أحبب أهلك و أبناءك؛ أحبب أهل مدينتك؛ و أحبب الناس من أهل المدن الأخرى.
قال تالا مستزيباً: و ماذا يا أبي؟
قال نخلة الحكيم: و أحرص أن تفعل مع الآخرين ما لا تود أن يفعلوه بك، و هكذا لن تحتاج إلى شراء سلاح أو لبناء سياج عال لحقلك.
سأل تالا أباه نخلة الحكيم: و لكن يا أبي، ماذا لو فعل الآخرون بي ما لا أحب أن أفعله بهم؟
قال نخلة الحكيم: فكن أقرب للسماح منك للانتقام، فإن لم ينفع ذلك فادفع عن نفسك ما يحيق بك من أذى و لا تذهب إلى أبعد من ذلك.

المدونة (١٨)

قال تالا لأبيه نخلة الحكيم: حدثني يا أبي عن أمور أخرى تفيدني في الحياة.
قال نخلة الحكيم: خذ عظة مما حصل للفلاح مانو من الوركاء.
قال تالا متسائلاً: و ما حكايته يا أبي؟
قال نخلة الحكيم: كان مانو فلاحاً نشيطاً، و لكنه كان كثير الشك بالآخرين فاعتزلهم. و كان يخشى على حقله من الطيور فأنشأ سياجاً عالياً حول الحقل و جعل في كل ركن منه فزاعة حتى لا تقربه الطير. و حين ازدهر حقله لم تزره الطيور؛ و لما لم تزره الطيور التي تأكل الجراد فقد تكاثر الجراد الذي يوجد منه القليل في كل حقل حتى صار يهدد حقله و حقول الآخرين.
قال تالا: و ماذا حصل بعد ذلك، يا أبي؟
قال نخلة الحكيم: أدرك مانو خطأه، و أسرع إلى جيرانه طالباً العون منهم، و رفع الفزاعات كافة، و هكذا استطاع أن ينقذ حقله و أن يصلح من شأنه مع الناس.

المدونة (١٩)

كان نخلة الحكيم يمشي في سوق الوركاء فمرّ من أمام بائع تماثيل الآلهة و آنية الفخار . نادى البائع على نخلة الذي التفت فوجد الكاهن و النحاس عند البائع.
قال البائع: لماذا يا نخلة الحكيم تمر سريعاً أمام دكاني و لا تقف لتتحدث إلي كما يفعل هذان السيدان؟
قال نخلة الحكيم: معذرة . عمتم صباحاً، و لكن لدي ما يشغلني.
قال البائع: أنت معروف بين أهل الوركاء بالحكمة فأردنا أن نتحدث معك عسى أن نستفيد، و عسى أن تشتري شيئاً من دكاني.
قال نخلة الحكيم: حسناً، هل لديك مجمرة من الفخار؛ فالشتاء على الأبواب.

قال البائع: ها هي المجرمة . و لكن ، قل لي يا نخلة الذي يصفه الناس بالحكمة ، لماذا لم تشتري يوماً تمثالاً لأحد الآلهة لتضعه في بيتك حتى يحميك من الشر؟
قال الكاهن : إنه لا يحترم الآلهة و لا يقدم لها النذور.
قال النحاس : و لم أره يوماً يقف عند دكتي حيث أبيع أفضل الجواري الحسان و أقوى العبيد.
قال نخلة الحكيم : ما نوع التماثيل التي لديك؟
قال البائع : لدي آلهة من حجر الصوان و أخرى من حجر الحلان و أخرى من الفخار.
تيسم نخلة الحكيم و قال: و من صنعها ؟
قال البائع متباهياً : إنها من صناعة أمهر النحاتين و الفخارين في أوروك و في بلاد سومر كلها.
ازدادت ابتسامة نخلة الحكيم بينما كان الكاهن ينظر إليه بعين تنقد ناراً.
قال نخلة الحكيم : أعطني المجرمة التي طلبتها، و خذ ثمنها. و دعني و شأني ، فلدي مشاغل لا بد من إنجازها.

(* النص للدكتور مصطفى هيكل. و قد نشره في جريدة " طريق الشعب " في منتصف سبعينيات القرن الماضي.